التوازي في العربية
التعديل قالبًا للإقناع
باربرا جونستون

التوازي في العربية
التعديل قالبًا للإقناع
باربرا جونستون(*)

مدخل:

من الأفكار التقليدية أن المرتكزات أو الاستراتيجيات strategies التي يستخدمها المتكلم لإقناع شخص بشئ بعينه مقيدة بعوامل نفسية وتاريخية فحسب. في هذا البحث أدلل على أن الضوابط اللغوية Linguistic constraints في استراتيجيات الإقناع تعدل تلك العوامل النفسية والتاريخية في الأهمية. أرى أن نحو التعديل على مستوى العبارة والمجموعة الجملية syntax of phrase - and clause – level modification في العربية المكتوبة، يعد قالبًا من قوالب بنية الخطاب البلاغي على مستوى الجملة والفقرة. إن خطاب الإقناع العربي – في النصوص المعاصرة التي بحثتها – متأثر من الناحية البلاغية بتكرار التوازي paratactic repetition. وهناك فكرة قابلة للتصديق، ذكرت وركن إليها وشرحت، هي أن الكتاب العرب يستخدمون الربط بين الجمل الرئيسة استخدامًا قويًا. ويندر أن يستخدموا الربط بين الجمل التابعة الذي يعلو شأنه في خطاب الإقناع الإنجليزي. ويتميز نحو التعديل العربي Arabic modificational syntax أيضًا بالعبارات المتجاورة في توازٍ. من العبارات المتجاورة من النوع التركيبي نفسه: الصفة والموصوف، وبعض جمل صلة الموصول، وجمل الحال. وهي أبنية تابعة لغيرها. وتعد المشاكلة البنائية بين الإقناع والتعديل نوعًا من التطابق؛ وذلك أن الإقناع يمكن – في حقيقة الأمر – أن ينظر إليه على أنه وظيفة من نوع التعديل. إن دعواي الأعم هي أن الانتفاع بالاستراتيجيات

(*) Johnstone, Barbara: Paratactic in Arabic: Modification as a Model for Presuasion, in Studies in Language,Vol.11,No.1 (1987) pp. 85-98

التركيبية مثل: التوازي في اللغة، إنما هو من الأمور التي تعلل سبب استعمالها في الخطاب استعمالاً تداوليًا، والعكس صحيح(*).

التوازي في الخطاب:

خطاب الإقناع العربي خطاب تكراريrepetitiveعلى نحو معقد(١). إنه مبني على التوازي بناء كليًا تقريبًا؛ إذ تتضام المفردات المترادفة في مزاوجات معجمية (كوتش Koch ١٩٨٢ أ)؛ فالجذور اللغوية والصيغ الصرفية تتكرر، وتنتج المتكررات التركيبية عبارات وجملاً متوازيةٍ، كما يقع التكرير المعنوي، ونرى المثال [١] – وهو مقتبس من عمل في النقد الأدبي – مثالاً مناسبًا تمامًا؛ لأنه لا يكشف عن هذه الظاهرة فحسب، بل يحاول أيضًا أن يشرحها(٢).

[١] وكأنه يرى أن الأدب الجدير بهذا الاسم، هو الذي يروق السمع كما يروق القلب في آن واحد، وهو لذلك يوفر لصونه كل جمال ممكن، ومن الغريب أنه لا يعدل عبارة يمليها، ولا يعد محاضرة قبل إلغائها؛ فقد أصبح هذا الأسلوب جزءًا من نفسه وعقله؛ فهو لا يملي ولا يحاضر إلا به، وكثيرًا ما تجد فيه الألفاظ المكررة، وهو يعمد إلى ذلك عمدًا، حتى يستتم ما يريد من إيقاعات وأنغام ينفذ بها إلى وجدان سامعيه وقارئيه".

نجد هنا اعتمادًا عظيمًا على الربط بين عبارات متكررة معنى أو شبه متكررة paraphrastic and near paraphrastic conjun ction في ثنايا هذا النص، لاسيما في نطاق المسندات predicates من تلك الجمل. نجد – في الجملة الأولى – المسند الموصول: "هو الذي يروق". "وهو لذلك يوفر".

(*) هذا البحث صورة منقحة لبحث آخر قدم إلى: L S A Annual Meeting (ديسمبر ١٩٨٣). وقد قدم كل من أ. ل. بيكر A. L. Becker وإرنست مكاروس Ernst Mc Carus ومحمود البطل مساعدة فائقة القيمة في الصياغة الأولى لتلك الأفكار. وأود أيضًا أن أشكر بروس مانهايم Bruce Mannheim وإديث هناتيا Edith Hanania ومراجعًا أجهل اسمه، على تصويب عدد من الأخطاء التعبيرية في مسودة سابقة. وبالطبع فأنا المسئولة عما بقي من أخطاء أو إساءة في التفسير.

ويتصل الجزء الأول منه أيضًا بالمزاوجة اللفظية الشارحة: "يروع السمع كما يروع القلب". والمسند في الجملة الثانية موصول أيضًا: "لا يعدل... ولا يعدّ". وليس الأثر الذي ينتجه توازي الجذرين المعجميين المتشابهين تشابهًا كليًا: ع – د – ل / ع – د – د. ليس أثرًا عفويًا(*).

وفي الجملة الثالثة نرى المزاوجة المعجمية lexical couplet: "من نفسه وعقله"، والإسناد المزودج في الجملة التالية: لا يملى ولا يحاضر إلا به". في الجملة الأخيرة نرى مزاوجتين اثنتين هما: "إيقاعات وأنغام" و"سامعيه وقارئيه".

تبدأ الجمل الأربع جميعًا بحروف عطف، ثلاثة منها هي الواو، والرابعة هي الفاء(٣).

وهناك جملة تابعة subordinate clause في تلك الفقرة، فضلاً عن جملتين موصولتين أعود إليهما بعد ذلك.

وفي الفقرة [٢] التالية مثال آخر على الخطاب المعتمد على التكرير المعنوي اعتمادًا كبيرًا. تعرض هذا المثال فقرة من مقال من جنس المثال السابق ذاته: النقد الأدبي(٤).

[٢] "الشعر تعبير وتصوير لمشاعر الشعراء وأفكارهم، سواء كانت التجربة واقعية أو من نسج خيال الشاعر. وفي كلتا الحالتين فإن التجربة صادقة، لأنه ولو كانت التجربة غير واقعية – أي خيالية – فإن الشاعر يعيش فيها مدة طويلة قبل أن ينظم شعره ويحسّها في نبضات قلبه ويشعرها تسري في دمائه. وبذلك فإن كل ألوان الشعر تعبير عن مشاعر صادقة يحس بها الشاعر ويعيش فيها".

هذا المثال يبدو – إلى حدّ ما – أشد تعقيدًا في بنيته من المثال السابق. إنه يضم جملتين تابعتين، إحداهما مع: "سواء كان" والأخرى مع "ولو

(*) ليس التشابه بينهما تشابهًا كليًا كما ذكرت؛ لاختلافهما – كما هو واضح – في الأصل الأخير (المترجم).

كان". ويضم هذا المثال أيضًا جملتين وصفيتين، إحداهما تعادل الأخرى: "يحسّ بها... ويشعرها تسري...". وتعد هذه الفقرة – على الإجمال – أقل توازيًا – نوعًا ما – من كثير من الفقرات الأخرى، وإن تعدد الربط فيها بحروف العطف. على كل حال، فهي فقرة نمطية، من حيث إنها فقرة تكرارية على مستوى عال.

في الجملة الأولى نرى مزاوجتين شارحتين: "تعبير وتصوير" (وهي مزاوجة معجمية مبنية على التوازي الصرفي) "ولمشاعر الشعراء وأفكارهم" .

وفي الجملة الثانية نرى "غير واقعية أي خيالية" التي نراها تفسيرية أو شارحة Paraphrastic، إن لم نرها نوع إطناب redundant. وذلك عند التسليم بحقيقة كون اللفظين. "واقعي" و"خيالي" متضادين تضادًا صريحًا في الجملة التي سبقتها.

وتحتوي الجملة الثالثة على مزاوجتين اثنتين، كلتاهما تفسيرية أو شارحة. أما المزاوجة الأولى، فهي: "يحسها في نبضات قلبه ويشعرها تسري في دمائه". وأما الأخرى، فهي: "يحس بها الشاعر ويعيش فيها".

وتعد الجملة الثالثة كاملة تفسيرًا للجملة الثانية. وتعبر كلتا الجملتين عن شئ واحد: يعبر الشعر عن تجارب واقعية؛ لأن الشاعر يعيش في تجاربه ويشعر بها، سواء أكانت تجارب واقعية أم غير ذلك. وتعوق كلمة "بذلك" – في صدر الجملة الثالثة – ملاحظة هذه العلاقة التفسيرية. ليست كلمة "بذلك" (=Thereby) في الإنجليزية الكلمة التي نتوقع أن نراها قبل شرح أو تفسير.

وينأى عن الاحتمال كثيرًا – على رغم ذلك كله – أن نجد كاتبًا يستخدم "بذلك" في غير موضعها الصحيح، في مثل هذا النص المعقد الذي نسج وعدّل في عناية.

الاستحضار والإقناع:

في علم البلاغة شبه المنطقي الغربي الذي تحاكي فيه البنية والعبارة في المجادلات غير الأصولية البنية والعبارة في المجادلات الأصولية (بيرلمان Perelman: ١٩٦٩: ١٩٣-٢٥٥)، نرى الوظيفة المعيارية لكلمة "إذن Therefore" ونظائرها من أدوات الوصل (والتي يرمز لها اختصارًا بـــ ∴) هي الإشارة إلى نتيجة استدلال قياسي منطقي:

كل إنسان فان،

وسقراط إنسان.

إذن سقراط فان.

ومهما يكن من أمر، فإن كلمة Therefore (إذن – ولذلك – ومن ثم) وما يرتبط بها من تعبيرات، يغلب أن تشير – من الناحية التداولية – إلى الدعاوى التي تقررت صحتها بطرق أخرى. مثال ذلك أن الإقناع الذي ينتج عما يسمى باسم ethos (أي عرض المجادلة لذاته) أو الذي ينتج عما يسمى باسم pathos (أي الإثارة الوجدانية)، يمكن لهما أن يوصفا على النحو ذاته الذي يوصف به الإقناع المنطقي:

[٣] استقصاؤها لا يشك في صحته وحجتها محكمة، إذن سوف نقبل نظريتها (logos).

[٤] أصر عضو مجلس الشيوخ على أنه شريف النفس، إنه على قدر عال من الاحترام، وهو – على ما يبدو – من عائلة، ويزور الكنيسة كل يوم أحد، إذن (ولذلك) تسقط دعوانا ضده (ethos).

[٥] بدا واضحًا أن نائب الرئيس نيكسون يحب كلبه الصغير حبًا جمًا حتى استغاث منه الناس. إذن (ولذلك) هم يعتقدون أنه لم يقبل الرشاوى (pathos).

ويحق لنا أن نزعم أن الوظيفة التداولية لـــ (إذن، ولذلك therefore) هي الإشارة إلى أن ما يأتي بعدها – في أي صورة كانت – يقرر خلاصة

لما قبلها. ومهمة البلاغيين التقابليين هي وصف الكيفية التي يتحقق بها هذا الأمر. بناء على ذلك، كيف يمكن لقضية أن تقرر شرحًا للقضية ذاتها؟ ولماذا يكون قول الشئ الواحد مرتين أو ثلاث مرات أقوى تأثيرًا من الناحية البلاغية من أن نقوله مرة واحدة ؟ ولماذا يكون التكرار في العربية هو الآلية الأشيع والأقوى في الإقناع ؟.

جليّ أن اختبار كيفية التعبير عن الفكرة؛ أي: كيف نقولها؟ يعدل في أهميته غالبًا القضية المعبر عنها: أي في أهمية ما تقوله. وغالبًا ما يكون التكرار المعنوي أو التفسير إقناعيًا في سياقات بلاغية غير رسمية informal rhetorical contexts. (آه، هذا هو الوقت الذي نضعها فيه هذا الوضع..)، أو في بعض السياقات الرسمية في المجتمع الأمريكي (وإن كان النموذج السائد في الكتابة الإقناعية persuasive writing يخضع العرض presentation أو الأسلوب style للابتكار والترتيب) يمكن لهذا النوع من الإقناع أن يسمى بالعرض أو الاستحضار (كوتش ١٩٨٣ ب). يجعل الاستحضار الأشياء مصدقًا بها؛ لأنه يمنحها قوة في حقل عاطفة المستمع ويستبقيها فيه. يستحضر التكرار الأفكار باستبقائها مكان الخطاب وزمانه.

إن استخدام الزمن المضارع في الإنجليزية يجعل الأفكار أيضًا أوثق عرى بمكانها. يقع هذا في استخدام الزمن المضارع في الحديث عن الماضي. وقد ناقشت شيفرين Schiffrin (١٩٨١) هذه المسألة أخيرًا في بحث لها عن المضارع التاريخي في النص السردي. كذلك تخلق الإحالات الإشارية الانفعالية emotional deixis (لاكوف Lakoff ١٩٤) حضورًا presence. وقد ضرب لها لاكوف من الأمثلة الكلمتين "هنا" و"الآن" في نحو قولنا: "هنا فكرة" أو "الآن، موضوعي التالي هو..". وتعد الاستعارات البصرية visual metaphors طريقة أخرى من طرق الاستحضار: فقد يرى المتكلمون أن مقارنة الأفكار على نحو مؤثر في أن

يجعلوا المستعمين ينظرون إليها، أو بادعاء أنهم يستطيعون – في سهولة – رؤيتها. ويستعمل كتاب العربية تلك الاستراتتيجيات جميعًا في الخطاب الإقناعي من أجل استحضار الواقع. ويعد التكرار القائم على التوازي – سواء أكان تكرارًا بنائيًا structural أم معنويًا paraphrastic – أبرز تلك الاستراتيجيات. الاستحضار وتكرار التوازي الذي يرافقه هما مفاتيح طريقة بناء الخطاب الإقناعي في العربية. يعني هذا أن الحاجة إلى الاستحضار تؤثر في شكل الخطاب تأثيرًا حاسمًا.

السؤال الذي أعود إليه الآن هو: لماذا استخدمت هذه الاستراتيجية على وجه الخصوص (مع متعلقاتها الشكلية) للإقناع ؟

التوازي في النحو:

إن الطريقة التي نجعل بها الخطاب محبوكًا معنويًا coherent، تعكس – بالمعنى الأوسع – الطريقة التي نجعل بها العالم موصوفًا بالصفة ذاتها[٥]. في سياق الخطاب الأضيق، هناك مصدران مهمان لما يلقى عليه من قيود. يقيد شكل الخطاب – من ناحية – بالوظيفة المنشودة؛ فالخطاب البلاغي يختلف عن الخطاب غير البلاغي[٦]. ومما له علاقة بمحاور الخطاب البلاغي وباستراتيجيات الإقناع: المعارف والقواعد التي تحدد – على نحو حضاري – من يمكنه أن يقنع الآخر، وكيفية تحقيق هذا الإقناع. وتتقاطع النظرة الإسلامية العربية إلى توقير الكلمة، وأشكال الخطاب العربي، وسياسة الشرق الأدنى، تتقاطع جميعًا – على نحو ما حاولت في موضع آخر بيانه – مع فهم الخطاب الإقناعي العربي (وانظر: كوتش ١٩٨٣ ب).

من ناحية أخرى، فإن الشكل الذي يتخذه الخطاب يعد وظيفة ما صبغ منه هذا الخطاب؛ أي وظيفة مفردات اللغة ومبانيها. بعبارة أخرى نقول: إن القيود التركيبية التي تلقى على لغة بعينها، هي قيود ملقاة على الخطاب

بتلك اللغة. أرى – فيما يلي – أن بعض أنواع تكرار التوازي (على الأقل) التي هي رد فعل للإقناع في العربية، إنما هي أنواع متجذرة في البنية التركيبية للغة العربية ذاتها. يعني هذا أن للعربية ذاتها – وليس للخطاب بالعربية – طرقًا في استدعاء تكرار التوازي. إن نحو عدد من أنواع تصرف الفعل والاسم بخاصة، مما يعد نحو تواز في العربية.

إن معظم خواص الخطاب العربي التي كشفت عنها بالمثالين [١] و[٢] تعد نتيجة وعي الكتاب بما يختارون وعيًا نسبيًا. ومن الممكن تمامًا أن نكتب عربية صحيحة صحة نحوية، من غير أن نستعمل – مثلاً – مزاوجات معجمية، أو أن نربط بين عبارات فعلية متوازية. ليست معايير اختيار مزاوجة معجمية من أكثر من كلمة مفردة، ليست معايير للصحة النحوية grammaticality، ولكنها معايير للمقبولية acceptability على مستوى آخر، هو مستوى نوع المعايير التي ينبغي للكاتب أن يستعملها حتى يقرر أن شيئًا بعينه قد أجيدت كتابته أو العكس. ومهما يكن من أمر، فإن هناك حالات لا تكون فيها الاختيارات حرة على هذا النحو، حالات تختار فيها البنية التكرارية المتوازية؛ لأن نحو العربية يؤثرها على غيرها، أو لأنها الاختيار الوحيد الذي يسمح به النحو. هناك نوع ميل إلى حرية الاختيار في الخطاب. من طرق الاختيارات التي تتخذ في حرية كاملة اختيار المحسنات اللغوية الخالصة Purely ornamental figures of speech.[٧] وهناك شكل آخر للاختيارات تكون فيه مقيدة كلية بالقوانين التركيبية كاختيار فعل يناسب فاعله [٨].

وفي موقع وسط من هذا الميل، تقع بنية المفعول المطلق؛ وهي بنية يقع فيها الفعل أو اسم المفعول أو اسم المصدر موقعه من عبارة تضم المصدر المشترك معها في الجذر نفسه. ومثال ذلك من النص الأول السابق:

[٦] يعمد إلى ذلك عمدًا:

المألوف والمفضل أن يكون هذا المصدر من صيغة الفعل ذاتها، ويؤدي هذا إلى التكرار (أي تكرار الجذر وتكرار الصيغة). وتتبع هذا المصدر غالبًا صفة منصوبة مثله، نحو:

[٧] تختلف اختلافًا أساسيًا:

وربما وقع في حال إضافة مثل:

[٨] كانوا التزموا المبدأ أشد التزام.

وهناك وسائل أخرى. مثل: المفعول المطلق المبيِّن لنوع الفعل.

في العربية أحوال وتمييزات قليلة. يمكن لتعديل الحال أو التمييز أن يتخذ طرقًا متنوعة، كأن يُعبَّر عن الحال بالجار والمجرور "جاء بسرعة"، أو بأفعال خاصة مثل: "كدت أقع" أو بأسماء معينة منصوبة "أحيانًا" أو أن يعبر بالتمييز مثل: "وكنت معه أشد إيجازًا"، أو بالمفعول المطلق. وفي الوقت الذي يتمتع فيه الكاتب بقدر من الحرية في تقرير استعمال المفعول المطلق أو بنية أخرى في تكييف الحال أو تعديله adverbial modification، يندر أن يخاير بين المفعول المطلق والحال. ويشغل المفعول المطلق وظيفة تركيبية جوهرية. وفي الوقت الذي لا إكراه فيه على الإطلاق على استعمال المفعول المطلق، نرى بنية اللغة التركيبية تؤثره إيثارًا بالغًا. وهو ما يعني أن الاختيار محدود. فضلاً عن ذلك، تتولد من المفعول المطلق استخدامات تبين نوعه وتكون منصوبة؛ وذلك أن مثل: "ضربته شديدًا" يفسره بعض النحاة على الأقل. مثل هايود Haywood ونامد Nahmad على أنه نتيجة حذف المصدر في "ضربته ضربًا شديدًا (نائب عن المفعول المطلق). في تلك الحالات، يلعب تكرار الجذر – إن صح هذا التحليل – دورًا بعينه على المستوى النحوي المجرد. وجمل الحال مثال آخر على تكييف التوازي، تقدم جملة الحال تكييفًا حاليًا بالإخبار عن الظروف والملابسات الملازمة للجملة المكيفة modified clause، وفيما يلي أمثلة على ذلك (من عبود وآخرين ١٩٧٥: ٤٣٥):

[٩] وصل وبين مكاتباته رسالة للرئيس.

[١٠] حضر إلى أمريكا وهو صغير.

وهذا مثال من النص (٢) المذكور آنفًا:

[١١] يعيش فيها... يحسها في نبضات قلبه ويشعرها تسري في دمائه.

هاتان جملتان، تكيف إحداهما الجملة الرئيسة وتكيف الأخرى جملة "يشعرها". وفي جميع الجُمل الحالية، هناك ضمير يعود على صاحب الحال في الجمل المكيفة، وصيغة فعلية أو اسم الفاعل أو المفعول. والفاعل فيها جميعًا ضمير. أما الرتبة word order فهى ذاتها التي نجدها في الجملة القائمة بذاتها. وفي معظم الحالات تسبق الحال بواو، يسمى عبود وآخرون (١٩٧٥: ٤٣٥) هذه الواو باسم ربط التابع المطابق لمتبوعه بحرف العطف: "الواو". وتسمى هذه الواو في العربية باسم واو الحال. وسواء فضلنا النظر إلى واو الحال على أنها وحدة معجمية مختلفة عن واو العطف في العربية المعاصرة أم لا، فإن هاتين الواوين على ارتباط تاريخي واضح: يرى بيتسون Beetson (١٩٧٠: ٨٩) أن وظيفة واو الحال في الأصل كانت العطف. ويقدم هذه الجملة الإنجليزية مثالاً على جملة معطوفة بتأثير جملة الحال:

(12) He has behaved disgracefully to me, and he calls himself my friend.

(سلك سلوكًا شائنًا تجاهي، وهو يسمى نفسه صديقي).

ويمكن أيضًا للجمل التي كالحال أن تقع في مبادلات متطرفة في الإنجليزية، نحو:

(13) John didn't show up.
Yeah, and he promised he would.

يجعل أوكس Ochs (١٩٧٩) وآخرون مثل هذه الأمثلة دليلاً على دعوى بعينها، هي أن الربط بين الجمل الثانوية في الخطاب المنطوق أقل منه في الخطاب المكتوب. وربما كان من الأدق القول بأن الجملة الثانوية يندر أن تميز على المستوى التركيبي أو المعجمي. العلاقة المنطقية بين

الجمل الرئيسة وجملة الحال علاقة متغيرة؛ فقد تكون جملة الحال زمنية temporal، وقد تكون علاقة مخالفة adversative، وقد تكون علاقة تبيين explanatory. وفي الوقت الذي تكون فيه الجمل الحالية تابعة من الناحية الدلالية، فإنها من الناحية الشكلية تشبه شبهًا قويًا جدًا الجمل القائمة بذاتها والتي هي – من حيث التوازي – مرتبطة بما تقوم على تعديله أو بيان حاله.

ومن أوثق الأشياء عرى بالميل إلى الاختيار المقيد تقييدًا كاملاً الأنواع المتعددة للتعديل الاسمي nominal modification والتي تبدو متوازية توازيًا ثابتًا. تتعلق الصفات في العربية بالأسماء التي تعدلها أو تصفها. ويرى بيتسون Beetson (١٩٧٠: ٤٥) أن الصفات كانت من الناحية التاريخية عطف بيان appositive nouns. وتقدم دلالة المزاوجة المعجمية: نفسه وعقله، شاهدًا آخر على أن عطف البيان appositive كان إحدى الآليات الأساسية للتعديل الاسمي في العربية. وتميل المزاوجات المعجمية غير القالبية non - idiomatic lexical couplets كالمزاوجات السابقة، تميل ميلاً قويًا إلى أن تصير مزاوجات ذات وظيفة تعديلية (كونتش ١٩٨٣ أ: ٥٤-٥٥).

وتشبه جمل الصلة النكرات أبنية عطف البيان، من حيث إنها لا تفترق من حيث الشكل عن الجمل القائمة بذاتها تمامًا. ومثال ذلك من النص [٢] السابق.

[١٤] مشاعر صادقة يحس بها الشاعر ويعيش فيها.

الدليل الوحيد على أن هذه الجملة موصولة وليست قائمة بذاتها: "مشاعر صادقة يحس بها الشاعر، ويعيش فيها"، هو أنها جزء من الوحدة الكتابية ذاتها التي ضمت الاسم الرئيس: "مشاعر"، وأنها تحتوي على الضمير "ها" في "بها" الذي يعود عليه. وتتصل معظم جمل الصلة بالجمل التي تنتظمها، من حيث إنها تضم ضميرًا مطابقًا أو فعلاً فاعله الاسم الرئيس في جملة الصلة[٩]. ويمكن للجمل القائمة بذاتها أن تضم – بالطبع

– ضمائر أو أفعالاً تحيل على جمل سابقة. كذلك فإن الوصل الذي تستلزمه جمل الصلة لا يجعلها تتطلع إلى شئ مختلف عن الجملة القائمة بذاتها. لا يؤدي هذا إلى القول بأن جمل الصلة النكرات ليست من أنماط الجمل الحقيقية في العربية. هناك علامات تنغيمية تسم تلك الجمل بالتبعية في عملية النطق، كما أن الأسماء الموصولة علامات تميز جمل الصلة المعارف(١٠). غير أن الجمل الموصولة النكرات تشبه أبنية عطف البيان المتوازية من حيث الشكل شبهًا لافتًا.

مناقشة:

مجمل القول أن خطاب الجدل الإقناعي في العربية يتميز بتجاور الأفكار تجاور توازٍ parataccticjuxtaposition of ideas؛ أي التجاور الذي يتكئ على كلمات متوازية، أو عبارات متوازية، أو جمل متوازية. ويشغل التجاور التكراري repetitive juxtaposition – من الناحية البلاغية – وظيفة الاستحضار؛ وذلك أنه يستحضر الدعاوى البلاغية repetitive claims إلى الواقع الحي. ويتميز نحو التعديل العربي Arabic modification syntax أيضًا بالتجاور المتوازي عن طريق تراكب المواد اللغوية من الجنس المعجمي أو التركيبي نفسه.

أما الأثر الدلالي للتجاور في نطاق النحو، فهو التعديل أو التكييف. وأما الأثر التداولي للتجاور في الخطاب، فهو الإقناع. هذه الاستراتيجية المحسوسة نراها فاعلة على كلا المستويين. لنقل – على سبيل التبسيط – إننا ندرك الأشياء إدراكًا مختلفًا عند الاعتماد على ما ترتبط به.

يتمثل الإدراك البصري في تجاربنا مع الأشكال الهندسية والألوان. يتجلى الخداع البصري عند مولر لاير Muller-Lyer مثلاً (انظر تولانسكي Tolansky ١٩٦٤: ٢٨) يتجلى في خطين متساويين في الطول، يظهران مختلفين إذا كان أحدهما بين زاويتين متجهتين ناحية الخط، وكان الآخران بين زاويتين متجهتين بعيدًا عنه (الشكل ١).

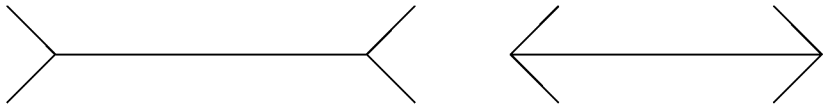

الشكل (١)

ونجد مثالاً آخر في شكل إبنجهاوس Ebbinghaus (لوكيش Luckiesh ١٩٦٥: ٥٦).

وهو عبارة عن دائرتين متماثلتين، قد تبدوان غير متماثلتين إذا كانت المسافات بينهما غير متساوية (الشكل ٢).

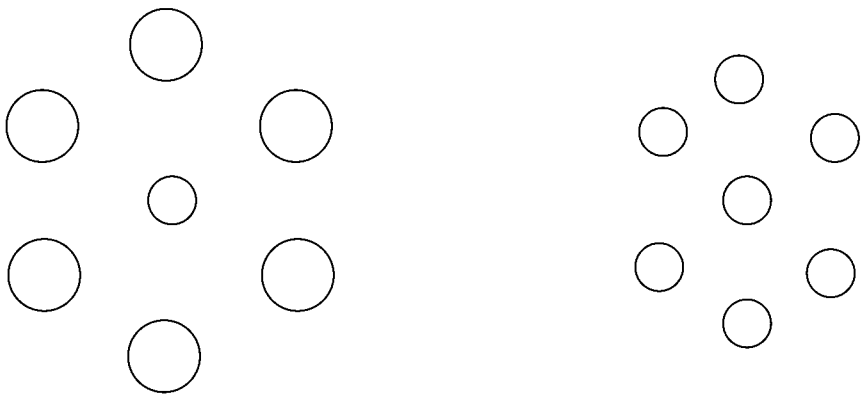

الشكل (٢)

هذا، ولم يتفق علماء النفس على كيفية حدوث الخداعات البصرية من النوع السابق. على رغم ذلك، يبدو التجاور عاملاً أساسيًا: "فتقديرنا للكم الهندسي geometrical quantity يتأثر تأثرًا ملحوظًا بطبيعة المنطقة التي تحيط به" (تولانسكي ١٩٦٤: ٢٩).

وفي إدراك المعنى إدراكًا لغويًا، يمكن أن تتبدى هذه الظاهرة من خلال تحليل دلالات المزاوجات المعجمية مثل:

- "clear and concise"

(وتعني "واضح ومختصر").

إذا كانت clear (واضح) تشير بذاتها إلى نوع من النثر الإنجليزي مرغوب فيه، وconcise (مختصر) تشير إلى نوع آخر، فإن التجاور بين الكلمتين في "clear and concise" يؤدي إلى أن تعدل كلمة concise كلمة clear أو تكيفها: فالاختصار يسهم في الوضوح. ويؤثر التجاور أيضًا في الشعور الاجتماعي: يحكم على الناس بمن يتزوجون أو يصادقون. من المنتظر – بناء على ذلك – أن تعمل المجاورة في النحو أو في الخطاب عملها أينما وقعت. ومهما يكن من أمر، فإن هذه الحقيقة تظل ثاوية: وهي أن الخطاب العربي يستخدم هذه الاستراتيجية استخدامًا أقوى من استخدامها في الإنجليزية؛ هذه اللغة التي ينتج الإقناع فيها – في السياقات الرسمية على الأقل – عن البرهان الذي ينهض من خلال تبعية بعض الأفكار لبعضها الآخر، لا من خلال استحضارها. ويبدو لي أن التماثل بين استراتيجية التعديل في العربية واستراتيجية الغرب في الإقناع لم يكن من باب المصادقة. يرجع ذلك إلى أن استراتيجية التعديل في النحو العربي – ممثلة في التوازي – تفيد في استخدامها لغرض الإقناع التداولي pragmatic purpose of persuasion في حالات عدة، بل تفيد في حالات إلزامية أحياناً. ولما كانت تلك الاستراتجية نافعة تداوليًا وغالبة الاستخدام في الخطاب، فقد صار التوازي – من حيث هو استراتيجية تركيبية – مألوفًا بدرجة أشد. يعني هذا استخدام المألوف وألفة المستخدم. ولا يقدم التوازي مثالاً جيدًا على الطريقة التي تقيّد بها الاستراتيجيات البلاغية بقيود البنية اللغوية فحسب؛ ولكنه يقدم مثالاً جيدًا على الطريقة التي تظهر بها البنية اللغوية في الخطاب البلاغي.

ملحوظات:

(١) الجنس الذي تبنى عليه هذه الدراسة هو الخطاب المكتوب في العربية المعيارية المعاصرة؛ والذي يُمَثِّل اللهجة الأدبية للمتكلمين بالعربية وقد كانت جميع النصوص التي أقمت عليها هذه الدراسة قد كتبت لغرض إقناعي، وقدمت لعامة المستمعين المتعلمين، مما يسمح بالقول بأنها

نصوص بلاغية بالمفهوم الأرسطي. وقد كتبت جميع هذه النصوص في النصف الثاني من القرن العشرين.

(٢) شوقي ضيف: الأدب العربي المعاصر – القاهرة (١٩٥٧) ص٢٥١-٢٥٢.

(٣) تعني الفاء في هذه الجملة شيئًا مثل "حتى for" و لكنها تعني أشياء أخرى في غير ذلك. وقد نوقشت دلالات هذا الربط ونحوه في العربية أخيرًا. انظر: البطل (١٩٨٥).

(٤) إرنست عيد المسيح، من مسودة مقال، لا أدري إن كان قد ظهر مطبوعًا أم لم يظهر.

(٥) أهم التطبيقات من الناحية العلمية – على حد علمي – مقالتان، إحداهما لـــ (أ، ل. بيكر Becker ١٩٧٩). والأخرى لـــ (يوديث بيكر Judith Becker ١٩٧٩). عن موسم الجاوي، ونظام التقويم الجاوي، والموسيقى الجاوية.

(٦) عما إذا كان من الممكن حقًا التمييز بين خطاب بلاغي وخطاب غير بلاغي، انظر:كينيث بوركه Kenneth Burke (١٩٥٠). ويزعم البلاغيون – على طريقة بوركه – أنهم لا يستطيعون القول بأن الخطاب كله خطاب بلاغي.

(٧) القول بالمحسنات اللغوية الحاصلة يستلزم القول بـــ "اللاتواصلية الكاملة؛ أي فقدان الوظيفة التواصلية للغة فقدانًا كاملاً - completely non communicative". ومن المشكوك فيه أن يكون هناك شئ ما – حتى الصمت نفسه – فاقدًا التواصلية فقدانًا تامًا.

(٨) يستطيع المرء – في هذا الموضع نفسه – أن يختار للمتكلمين الحرية في خلق موضوعات خاصة بكسر قوانين القبول المألوفة.

ويمكن للمرء أن يتصور في رواية عملية مركبًا يجمع بين مخلوقات ذات شخصيات متعددة، ويصبح فيه مثل قولنا "I are" قابلاً للتفسير.

وهناك مثال أقل غرابة نحو استعمال بعض الكتاب الضمير "هي she" بمعنى الجنس المرتبط في التقليد بالضمير "هو he".

(٩) في العربية القديمة حالات تفوق نظائرها في العربية المعيارية المعاصرة للجمل الموصولة دون ضمائر عائدة rsumptive pronouns أو أفعال متعلقة. الضمير العائد في العربية القديمة يحذف غالبًا بعد "مَنْ" و"ما". انظر: Haywood and Nahmad (1985) p. 285

وانظر أيضًا: Wright (1951) (1898) p. 319

(١٠) يجادل كل من حداد وكينستوفيتس Kenstowicz (١٩٨٠) في أن علامة الجملة الموصولة المعرفة وأداة التعريف تشتركان في عدد من الخواص. يعني هذا وجوب النظر إلى جمل الصلة المعرفة على أنها جمل بدل، تجعلها مطابقة لها في التعريف بواسطة ما فيها من أسماء رئيسة، على نحو ما تفعل الصفات.

المراجع

- Abboud, Petre F. et al. (1975): Elementary Modern Standard, Part 1, Ann Arbor: University of Michigan Department of Near Eastern Studies>
- Al-Batal, Mahmoud (1985): The Cohesive role of connectives in a modern expository Arabic text. Dissertation, University of Michigan.
- Becker. A.L. (1979): Text – building, epistemology and aesthetics in Javanese shadow theatre. In: The imagination of reality.
- Beeston, A.(1970): The Arabic Language Today, London: Hutchinson. University Library.
- Koch, B.J. (1983 a): Arabic Lexical Couplets and the evolution of Synonymy. General Linguistics, 23, 1: 51-61.
- Koch, B.J. (1983 b): Presentation as proof: The Language of Arabic Rhetoric Anthropological Linguistics, 25, 1: 47-60.
- Ochs, E., Schieffelin, B., Platt, M. (1979): Propsitions across utterances and speakers. In: E. Ochs and B. chieffelin (Eds.): Developmental Pragmatics (pp. 251 – 266) New York: Academic Press.
- Perelman, C. and Olbrechts- Tyteca, L. (1969): The Treatise on argumentation. London: University of Notre Dame Press.
- Schiffrin, D. (1981): Cohesion in everyday Discourse: The role of paraphrasw. Paper presented at the meeting of the Linguistic Society of America. New York.